سورة الحج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ
عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا
أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ
سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ
﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ
شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ
وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي
رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ
مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ
وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ
طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ
وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن
بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا
الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾
٣٣٢

معانى الكلمات :

زلزلة الساعة : أهوال القيامة .

تذهل : تغفل .

سكارى : مدهوشين .

مريد : طاغ .

كتب عليه : قدر عليه .

علقة : دم متجمد .

مضغة : قطعة لحم كالممضوغة .

هامدة : لا زرع فيها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم حرمة الجدال بالباطل لإدحاض الحق وإبطاله .

٢ ـ أن نعلم أن موالاة الشياطين واتباعهم يفضى بالمتابع إلى عذاب السعير .

٣ ـ أن نقف على أطوار خلق الإنسان ودلالتها على قدرة الله وعلمه وحكمته .

المحتوى التربوى :

يبدأ السياق بالنداء العام ، نداء الناس جميعا إلى تقوى الله ، وتخويفهم من زلزلة الساعة ، ووصف الهول المصاحب لها فى مطلع عنيف رعيب ، ومشهد ترتجف لهوله القلوب ، فهو يدعو الناس جميعا إلى الخوف من الله ، ويخوفهم ذلك اليوم العصيب ، وهكذا يبدأ بالتهويل المجمل ، وبالتجهيل الذى يلقى ظل الهول يقصر عن تعريفه التعبير ، فيقال : إنه زلزلة ، وإن الزلزلة شىء عظيم من غير تحديد ولا تعريف .

ثم يأخذ فى التفصيل فإذا هو أشد رهبة من التهويل ، مشهد حافل لكل مرضعة ذاهلة عما أرضعت تنظر ولا ترى ، وتتحرك ولا تعى ، وبكل حامل تسقط حملها للهول المروع ينتابها ، وبالناس سكارى وما هم بسكارى ، يتبدى السكر فى نظرتهم الذاهلة ، وفى خطواتهم المترنحة ، مشهد مزدحم بذلك الحشد المتماوج ، تكاد العين تبصره لحظة التلاوة ، فالعذاب شديد ، والمطلع عنيف مرهوب تتزلزل له القلوب .

فى ظل هذا الهول المروع يذكر أن هنالك من يتطاول فيجادل فى الله ، ولا يستشعر تقواه ، فيزعم أنه غير قادر على إحياء من قد بلى وصار ترابا ، ونحو ذلك من الأباطيل ، ويتبع فى جداله كل عاتٍ متمرد ، كرؤساء الكفار الصادين عن الحق ، والشيطان مقدور عليه أن يضل تابعه عن الهدى والصواب ، ولا يهديه إلى الحق ، بل يسوقه إلى عذاب جهنم الموقدة .

أم إن الناس فى ريب من البعث ؟ وفى شك من زلزلة الساعة ؟ إن كانوا يشكون فى إعادة الحياة فليتدبروا كيف تنشأ الحياة ، ولينظروا فى أنفسهم ، وفى الأرض من حولهم ، حيث تنطق لهم الدلائل بأن الأمر مألوف ميسور ، ولكنهم هم الذين يمرون على الدلائل فى أنفسهم وفى الأرض غافلين ، والبعث إعادة لحياة كانت ، فهو فى تقدير البشر أيسر من إنشاء الحياة ، وإن لم يكن ـ بالقياس إلى قدرة الله ـ شىء أيسر ولا شىء أصعب ، فالبدء كالإعادة أثر لتوجه الإرادة ، ولكن القرآن يأخذ البشر بمقاييسهم ومنطقهم وإدراكهم فيوجه قلوبهم إلى تدبر المشهود المعهود لهم، وهو يقع لهم كل لحظة ويمر بهم فى كل برهة .

فما هؤلاء الناس ؟ وما هم ؟ من أين جاؤوا ؟ وكيف كانوا ؟ وفى أى الأطوار مروا ؟ ! والإنسان ابن هذه الأرض ، من ترابها نشأ وتكون وعاش ، والمسافة بين عناصر التراب الأولية الساذجة والنطفة المؤلفة من الخلايا المنوية الحية ، مسافة هائلة ، تضمر فى طياتها السر الأعظم ، سر الحياة ، السر الذى لم يعرف البشر عنه شيئا يذكر .

فما تلك النطفة ؟ إنها ماء الرجل ، والنقطة الواحدة من هذا الماء تحمل ملايين الحيوانات المنوية ، وحيوان واحد منها هو الذى يلقح البويضة من ماء المرأة فى الرحم ، ويتحد بها فتعلق فى جدار الرحم ، وفى هذه النطفة العالقة بجدار الرحم تكمن جميع خصائص الإنسان المقبل وصفاته الوراثية ، ومن العلقة إلى المضغة ، وهى قطعة من دم غليظ لا تحمل سمة ولا شكلا ، ثم تخلق فتتخذ شكلها بتحولها إلى هيكل عظمى يكسى باللحم ، أو يلفظها الرحم قبل ذلك إن لم يكن مقدرا لها التمام ، وهذا كله دلائل قدرة طليقة .

ثم يمضى السياق مع أطوار الجنين ، وما شاء الله أن يتم تمامه أقره فى الأرحام حتى يحين أجل الوضع ويصير الجنين طفلا ، ويمضى السياق مع أطوار ذلك الطفل بعد أن يرى النور ، ويفارق المكمن الذى تمت فيه تلك الخوارق الضخام فى خفية عن الأنظار ، ثم يبلغ هذا الطفل أشده ، وكم بين الطفل الوليد والإنسان الشديد من مسافات فى المميزات أبعد من مسافات الزمان ، ولكنها تتم بيد القدرة المبدعة التى أودعت الطفل الوليد كل خصائص الإنسان الرشيد ، وكل الاستعدادات الكائنة التى تتبدى فيه وتتكشف فى أوانها ، كما أودعت النطفة العالقة بالرحم كل خصائص الطفل ، وهى ماء مهين .

فأما من يتوفى فهو صائر إلى نهاية كل حى ، وأما من يرد إلى أرذل العمر فهو صفحة مفتوحة لتدبر ما تزال ، فبعد العلم وبعد الرشد وبعد الوعى وبعد الاكتمال إذا هو يرتد طفلا ، طفلا فى عواطفه وانفعالاته ، طفلا فى وعيه ومعلوماته ، طفلا فى تقديره وتدبيره ، طفلا أقل شىء يرضيه وأقل شىء يبكيه ، طفلا فى حافظته فلا تمسك شيئا ، وفى ذاكرته فلا تستحضر شيئا ، طفلا فى أخذه الحوادث والتجارب فرادى لا يربط بينها رابط ولا تؤدى فى حسه ووعيه إلى نتيجة ، لأنه ينسى أولها قبل أن يأتى على آخرها .

ثم تستطرد الآية إلى عرض مشاهد الخلق والإحياء فى الأرض والنبات ، بعد عرض مشاهد الخلق والإحياء فى الإنسان ، فنشاهد الأرض هامدة ، والهمود درجة بين الحياة والموت ، وهكذا تكون الأرض قبل الماء ، فإذا نزل عليها الماء وهى تربة جافة تتحرك حركة اهتزاز وهى تتشرب الماء وتتفتح فتربو ثم تنفتح بالحياة عن النبات ألوانا وفنونًا ؛ من ثمار وزروع .

وأشتات النباتات فى اختلاف ألوانها وطعومها ، وروائحها وأشكالها ومنافعها ، وأنبتت حسن المنظر طيب الريح .

وهكذا يتحدث القرآن عن القرابة بين أبناء الحياة جميعا ، فيسلكهم فى آية واحدة من آياته ، وإنها للفتة عجيبة إلى هذه القرابة الوثيقة ، وإنها لدليل على وحدة عنصر الحياة ، وعلى وحدة الإرادة دافعة لها هنا وهناك فى الأرض والنبات والحيوان والإنسان .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أهوال القيامة شديدة مفزعة مخيفة مرعبة لن ينجى منها إلا تقوى الله والخشية منه .

٢ ـ دعوة الإسلام عامة للناس جميعا .

٣ ـ الشيطان عدو للناس يضلهم عن الحق ويقودهم إلى عذاب النار .

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ
﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى
ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى
وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى
ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ
بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ
مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ
فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ
ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ
وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن
ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾
إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ
يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى
ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

معانى الكلمات :

ريب : شك .

ثانى عطفه : يثنى رقبته استكباراً .

خزى : ذل .

على حرف : على شك .

انقلب على وجهه : ارتد كافرا .

العشير : المعاشر .

بسبب : بحبل .

ليقطع : ليختنق .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الله لايدع المتكبرين المتعجرفين الضالين المضلين .

٢ ـ أن نعلم أن العقيدة هى الركيزة الثانية فى حياة المؤمن .

٣ ـ أن نعلم أنه لا سبيل إلى احتمال البلاء إلا بالرجاء فى نصر الله .

المحتوى التربوى :

يعلن السياق أن الإنسان من التراب وتطور الجنين فى مراحل تكونه ، وتطور الطفل فى مراحل حياته ، وانبعاث الحياة من الأرض بعد الهمود ، ذلك متعلق بأن الله هو الحق ، فهو من السنن المطردة التى تنشأ من أن خالقها هو الحق الذى لا تختل سننه ولا تتخلف ، وأن اتجاه الحياة هذا الاتجاه فى هذه الأطوار ليدل على الإرادة التى تدفعها وتنسق خطاها وترتب مراحلها ، فهنالك ارتباط وثيق بين أن الله هو الحق ، وبين هذا الاطراد والثبات والاتجاه الذى لا يحيد ، وإحياء الموتى هو إعادة الحياة ، والذى أنشأ الحياة الأولى هو الذى ينشئها للمرة الآخرة ليلاقوا ما يستحقونه من جزاء ، فهذا البعث تقتضيه حكمة الخلق والتدبير .

ومع هذه الدلائل المتضافرة فهناك من يجادل فى الله ، والجدال فى الله بعد تلك الدلائل يبدو غريبا مستنكرا ، فكيف إذا كان جدالا بغير علم لا يستند إلى دليل ، ولا يقوم على معرفة ، ولا يستمد من كتاب ينير القلب والعقل ، ويوضح الحق ويهدى إلى اليقين ، والتعبير يرسم صورة لهذا الصنف من الناس ، صورة فيها الكبر المتعجرف وهو مستكبر عن الحق إذا دعى إليه مائلاً مزورًا بجنبه ، ولا يكتفى بأن يضل إنما يحمل غيره على الضلال ، وهذا الكبر الضال المضل لابد أن يقمع ولابد أن يحطم ، والله لا يدع المتكبرين المتعجرفين الضالين المضلين حتى يحطم تلك الكبرياء الزائفة وينكسها ولو بعد حين ، إنما يمهلهم أحيانا ليكون الخزى أعظم والتحقير أوقع ، أما عذاب الآخرة فهو أشد وأوجع ، وفى لحظة ينقلب ذلك الوعيد المنظور إلى واقع مشهود بلفتة صغيرة فى السياق من الحكاية إلى الخطاب ، وما حصل له بما قدمت يداه والله ليس بظالم لأحد ، يلقى التقريع والتبكيت مع العذاب والحريق .

ويمضى السياق إلى نموذج آخر من الناس ، ذلك الذى يزن العقيدة بميزان الربح والخسارة ، ويظنها صفقة فى سوق التجارة ، والعقيدة هى الركيزة الثابتة فى حياة المؤمن ، تضطرب الدنيا من حوله فيثبت هو على هذه الركيزة وتتجاذبه الأحداث والدوافع ، فيتشبث هو بالصخرة التى لا تزعزع ، وتتهاوى من حوله الأسناد فيستند هو إلى القاعدة التى لا تحول ولا تزول .

أما ذلك الصنف من الناس الذى يتحدث عنه السياق فيجعل العقيدة صفقة فى سوق التجارة، فإن أصابه خير قال : إن الإيمان خير ، فها هو ذا يجلب النفع ويدر الضرع ، وينمى الزرع ، ويربح التجارة ويكفل الرواج ، ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾ فسدت عليه دنياه وخسر الدنيا بالبلاء الذى أصابه فلم يصبر عليه ، ولم يتماسك له ، ولم يرجع إلى الله فيه وخسر الآخرة بانقلابه على وجهه ، وانكفائه عن عقيدته ، وانتكاسه عن الهدى الذى كان ميسرا له .

يقول صاحب الظلال : « إن حساب الربح والخسارة يصلح للتجارة ولكنه لا يصلح للعقيدة ، فالعقيدة حق يعتنق لذاته ، والعقيدة تحمل جزاءها فى ذاتها بما فيها من طمأنينة وراحة ورضا ، فهى لا تطلب جزاءها خارجا عن ذاتها ، والمؤمن لا يجرب إلهه ، فهو قابل ابتداء لكل ما يقدره له ، مستسلم ابتداء لكل ما يجريه عليه راضٍ ابتداء بكل ما يناله من السراء والضراء ، وليست هى صفقة فى السوق بين بائع وشار ، إنما هى إسلام المخلوق للخالق صاحب الأمر فيه ومصدر وجوده من الأساس » .

والذى ينقلب على وجهه عند مس الفتنة يخسر الخسارة التى لا شبهة فيها ولا ريب ، يخسر الطمأنينة والثقة والهدوء والرضا إلى جوار خسارة المال أو الولد أو الصحة أو أعراض الحياة

الأخرى التى يفتن الله بها عباده ، وإلى أين يتجه هذا الذى يعبد الله على حرف ؟ إلى أين يتجه بعيداً عن الله ؟

إنه يدعو من دون الله صنمًا أو وثنًا ، ويدعو شخصا أو جهة أو مصلحة ، إنه الضلال عن المتجه الوحيد الذى يجدى فيه الدعاء ، وذلك هو البعد عن الهدى والاهتداء ، والذى يدعوه لا يملك ضراً ولا نفعا ، وهو أقرب لأن ينشأ عنه الضر ، وضره أقرب من نفعه ؛ ضره فى عالم الضمير بتوزيع القلب ، وضره فى عالم الواقع وكفى بما يعقبه فى الآخرة من ضلال وخسران ، ولبئس ذلك المولى الضعيف الذى لا سلطان له فى ضرٍ أو نفع ، ولبئس المعاشر الذى ينشأ عنه الخسران .

والله يدخر للمؤمنين به ما هو خير من عرض الحياة الدنيا كله ، حتى لو خسروا ذلك العرض كله فى الفتنة والابتلاء ، فمن مسه الضر فى فتنة من الفتن ، وفى ابتلاء من الابتلاءات ، فليثبت ولا يتزعزع ، وليستبق ثقته برحمة الله وعونه ، وقدرته على كشف الضراء ، وعلى العوض والجزاء .

فأما من يفقد ثقته فى نصر الله فى الدنيا والآخرة ، ويقنط من عون الله له فى المحنة حين تشتد المحنة فدونه فليفعل بنفسه ما يشاء ، وليذهب بنفسه كل مذهب ، فما شىء من ذلك بمبدل ما به من البلاء ، وهو مشهد متحرك لغيظ النفس ، وللحركات المصاحبة لذلك الغيظ ، يجسم هذه الحالة التى يبلغ فيها الضيق بالنفس أقصاه ، عندما ينزل بها الضر وهى على غير اتصال بالله ، والذى ييأس فى الضر من عون الله يفقد كل نافذة مضيئة ، وكل رجاء فى الفرج ، ويثقل على صدره الكرب ، فيزيد هذا كله من وقع الكرب والبلاء .

فمن كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بحبل إلى السماء يتعلق به أو يختنق ، ثم ليقطع الحبل فيسقط أو ليقطع النفس فيختنق ثم لينظر هل ينقذه تدبيره ذاك مما يغيظه .

ألا إنه لا سبيل إلى احتمال البلاء إلا بالرجاء فى نصر الله ، ولا سبيل إلى الفرج إلا بالتوجه إلى الله ، ولا سبيل إلى الاستعلاء على الضر والكفاح للخلاص إلا بالاستعانة بالله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ المؤمن صاحب عقيدة لا يتلجلج فيها ولا ينتظر عليها جزاء .

٢ ـ المؤمن يعبد ربه شكرا له على هدايته إليه .

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ
﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ
وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ
يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ
وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ
وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟
فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ
مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ
وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟
أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ
﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ
أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾
٣٣٤

معانى الكلمات :

بينات : واضحات .

الصابئين : عبدة الملائكة .

المجوس : عبدة النيران .

يفصل : يحكم .

قطعت : فصلت .

الحميم : الماء الشديد الحرارة .

يصهر : يذاب .

مقامع : مضارب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن من طلب الهدى تحققت إرادة الله بهدايته وفق سنته .

٢ ـ أن نعلم أن الكون كله يتجه بفطرته إلى خالقه يخضع لناموسه ويسجد لوجهه .

٣- أن نعلم أن من يحق عليه العذاب فقد حق عليه الهوان .

المحتوى التربوى :

يوضح السياق أنه بمثل هذا البيان لحالات الهدى والضلال ، ولنماذج الهدى والضلال ، أنزل الله هذا القرآن ليهتدى به من يفتح له قلبه ، فيقسم الله له الهداية ، وإرادة الله قد قررت سبق الهدى والضلال ، فمن طلب الهدى تحققت إرادة الله بهدايته وفق سنته ، وكذلك من طلب الضلال ، إنما يفرد هنا حالة الهدى بالذكر بمناسبة ما فى الآيات من بيان يقتضى الهدى فى القلب المستقيم .

فأما الفرق المختلفة فى الاعتقاد فأمرها إلى الله يوم القيامة ، وهو العليم بكل مافى عقائدها من حق أو باطل ، ومن هدى أو ضلال ، والله يهدى من يريد ، وهو أعلم بالمهتدين والضالين وعليه حساب الجميع ، والأمر إليه فى النهاية وهو على كل شىء شهيد .

وإذا كان الناس بتفكيرهم ونزعاتهم وميولهم ، فإن الكون كله فيما عداهم يتجه بفطرته إلى خالقه ، يخضع لناموسه ويسجد لوجهه ، ويتدبر القلب هذا النص ، فإذا حشد من الخلائق مما يدرك الإنسان ومما لا يدرك ، وإذا حشد من الأفلاك والأجرام مما يعلم الإنسان ومما لا يعلم ، وإذا حشد من الجبال والشجر والدواب فى هذه الأرض التى يعيش عليها الإنسان ، إذا بتلك الحشود كلها فى موكب خاشع تسجد كلها لله ، وتتجه إليه وحده دون سواه ، تتجه إليه وحده فى وحدة واتساق إلا ذلك الإنسان فهو وحده الذى يتفرق فيبدو هذا الإنسان عجيبا فى ذلك الموكب المتناسق .

وهنا يقرر أن من يحق عليه العذاب فقد حق عليه الهوان ، فلا كرامة إلا بإكرام الله ، ولا عزة إلا بعزة الله ، وقد ذل وهان من دان لغير الديان .

يقول صاحب الأساس : « يأتى هذا الخطاب الذى يقرر خضوع خلق الله جميعا لله فى سياق الإنكار على من ييأس من نصر الله ، وفى سياق الإنكار على من يعبد الله على حرف ، ليبين أن الأمر أمره والملك ملكه ، وكل شىء خاضع له ، وأن من يفر من عبادته أمامه ما أمامه ، وأن الذى ييأس من نصره لا يعرف حقيقة الأمر من كون كل شىء خاضعا له خضوع اختيار أو اضطرار .. ومحور السورة يأمر بالعبادة كطريق للتقوى ، ويأتى هذا السياق ليقرر أن السجود الذى هو أرقى درجات العبادة هو سمة الكون كله بما فيه ومن فيه ، وأن الذين لا يسجدون من البشر معذَّبون ، وأن الذين يسجدون منسجمون مع سجود الخلق كلهم » .

ثم يأتى مشهد من مشاهد القيامة يتجلى فيه الإكرام والهوان ، فى صورة واقع يشهد كأنه معروض للعيان ، فهو مشهد عنيف صاخب ، حافل بالحركة ، مطوّل بالتخييل الذى يبعثه فى النفس نسق التعبير ، فلا يكاد الخيال ينتهى من تتبعه فى تجدده .. هذه ثياب من النار تقطع وتفصل ، وهذا حميم ساخن يصب من فوق الرؤوس ، يصهر به ما فى البطون والجلود عند صبه على الرؤوس ، وهذه سياط من حديد أحمته النار ، وهذا هو العذاب يشتد ويتجاوز الطاقة، فيهب الذين كفروا من الوهج والحميم والضرب الأليم يهمون بالخروج من هذا الغم ، وها هم أولاء يردون بعنف ويسمعون التأنيب ، ويهانون بالعذاب قولا وفعلا .

ويظل الخيال يكرر هذه المشاهد من أولى حلقاتها إلى أخراها ، حتى يصل إلى حلقة محاولة الخروج والرد العنيف ليبدأ فى العرض من جديد .

يقول صاحب الأساس : « دلت هذه الآيات على ما أعد الله للخصوم فيه فعرفنا بذلك أن نصرة الله فى الآخرة لأوليائه ما بعدها نصرة ، وأن خذلان الله لأوليائه ما بعده خذلان ، فلتتذكر كيف سارت الآيات : فقد أنكرت على من ييأس من النصر ، ثم بينت أن النصر الحقيقى يوم القيامة ، ثم بينت أن كل شىء خاضع لله ، ثم بينت عاقبة المتخاصمين فيه فى الآخرة ، وهكذا عرفتنا أن النصر الحقيقى هو النصر فى الآخرة » .

ولا يبارح الخيال هذا المشهد العنيف المتجدد إلا أن يلتفت إلى الجانب الآخر ، الذى يمضى السياق إلى عرضه ، فأصل الموضوع أن هناك خصمين اختصموا فى ربهم ، فأما الذين كفروا به فقد كنا نشهد مصيرهم المفجع منذ لحظة .

وأما الذين آمنوا فهم هنالك فى الجنات تجرى من تحتها الأنهار ، وملابسهم لم تقطع من النار ، إنما فصلت من الحرير ولهم فوقها حلى من الذهب واللؤلؤ،وقد هداهم الله إلى الطيب من القول، والهداية إلى صراط الحميد نعمة تذكر فى مشهد النعيم ، نعمة الطمأنينة واليسر والتوفيق .

وهذه مشاهد تنحنى أمامها الرأس إكبارا ، وتتزلزل عندها النفس إشفاقا ، ويضطرب لها القلب إجلالا ، وليذهب الخيال مذهبه وهو يرى الكون كله يزهر نُجومه فيستشعر ومضات النجوم آيات تسبيح وتمجيد ، والشمس وقد انتعل كل شىء ظله تقف وقفة رهبة وإشفاق ، والنبات فى لحظة اخضراره وكأنه فى اهتزازه وجدان مفعم بذكر الله ، وفى لحظة جفافه وسقوط أوراقه وكان فرط العشق أحاله إلى عروق بينها قلب دقاته على باب محبوبه ، والجبال أمام هذا كله قد استطالت وكأنها سابق حاز الفوز فرفع رأسا فى موكب كله يسير إلى الله ، والأرض تحت كل هذا تترجم مشاعر الخوف والرجاء .

ويأتى الإنسان وبعضه قد أعلن النشاز، وانفصل عما كان به أولى ، فإذا هو فى نيران مستعرة، وحميم ساخن وسياط من حديد، وآلام تتجاوز حد الطاقة، وله إهانة فى الدنيا والآخرة لا تبرح ، ويتجلى الإكرام لبعضه الآخر وقد أتى إلى ربه يقود كونا تحت قدميه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الكون كله خاضع لله فأولى بالإنسان أن يكون أول الخاضعين .

٢ ـ المهان هو البعيد عن طاعة الله فالكرامة فى عبادته .

٣ ـ شدة العذاب تجعل العاقل يفكر فى عاقبة أمره .

٤ ـ عظم النعيم تجعل المسلم يقبل على طاعة ربه .

وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ
(٢٤) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ
ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ
وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ (٢٥)
وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي
شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ
ٱلسُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ
كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ (٢٧) لِّيَشۡهَدُواْ
مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ
عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ
ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ
نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ (٢٩) ذَٰلِكَۖ وَمَن
يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ
لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ
ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ (٣٠)

معانى الكلمات :

هدوا : أرشدوا .

العاكف : المقيم .

الباد : غير المقيم .

بإلحاد بظلم : بميل عن الحق إلى الباطل .

ضامر : الجمل الهزيل .

فج عميق : طريق بعيد .

تفثهم : وسخهم .

الرجس : القذر والمقصود الأوثان .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم موقف الكافرين فى مواجهة الدعوة الإسلامية .

٢ ـ أن نعلم أن الغرض من بناء البيت الحرام هو عبادة الله الواحد .

٣ ـ أن نقف على بعض مناسك الحج وشعائره وأهدافه المذكورة .

المحتوى التربوى :

يبدأ السياق فى درس جديد ، فيتحدث عن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام ، وهم الذين كانوا يواجهون الدعوة الإسلامية فى مكة ، فيصدون الناس عنها ، ويواجهون الرسول ﷺ والمؤمنين فيمنعونهم من دخول المسجد الحرام .

وبهذه المناسبة يتحدث عن الأساس الذى أقيم عليه ذلك المسجد يوم فوض الله إبراهيم عليه السلام فى بنائه ، والأذان فى الناس بالحج إليه ، ولقد كلف إبراهيم أن يقيم هذا البيت على التوحيد ، وأن ينفى عنه الشرك ، وأن يجعله للناس جميعا ، سواء المقيم فيه والطارئ عليه لا يمنع عنه أحد ولا يملكه أحد .

ولقد كان هذا المنهج الذى شرعه الله فى بيته الحرام سابقا لكل محاولات البشر فى إيجاد منطقة حرام ، يلقى فيها السلاح ، ويأمن فيها المتخاصمون ، وتحقن فيها الدماء ويجد كل أحد فيها مأواه لا تفضلا من أحد ، ولكن حقا يتساوى فيه الجميع .

وهكذا سبق الإسلام سبقا بعيداً بإنشاء واحة السلام ، ومنطقة الأمان ، ودار الإنسان المفتوحة لكل إنسان ، والقرآن الكريم يهدد من يريد اعوجاجا فى هذا النهج المستقيم بالعذاب الأليم ، والتعبير يهدد ويتوعد على مجرد الإرادة زيادة فى التحذير ، ومبالغة فى التوكيد .

ثم يرجع إلى نشأة هذا البيت الحرام الذى يستبد به المشركون ، يعبدون فيه الأصنام ، ويمنعون منه الموحدين بالله المتطهرين من الشرك ، يرجع إلى نشأته على يد إبراهيم عليه السلام ، وقد عرف الله له مكانه ، وملكه أمره ليقيمه على أساس التوحيد ، فهو بيت الله وحده دون سواه وليطهره به من الحجيج ، والقائمين فيه للصلاة فهؤلاء هم الذين أنشئ البيت لهم ، لا لمن يشركون بالله ويتوجهون بالعبادة إلى سواه .

ثم أمر إبراهيم عليه السلام إذا فرغ من إقامة البيت على الأساس الذى كلف به أن يؤذن فى الناس بالحج ويدعوهم إلى البيت الحرام ، ووعده أن يلبى الناس دعوته من كل فج ؛ رجالا يسعون على أقدامهم ، وركوبا على كل ضامر من الإبل جهده السير فضمر من الجهد والجوع .

ويقف السياق عند بعض معالم الحج وغاياته ؛ والمنافع التى يشهدها الحجيج كثيرة ، فالحج موسم ومؤتمر ، والحج موسم تجارة وموسم عبادة ، والحج مؤتمر اجتماع وتعارف ومؤتمر تنسيق وتعاون ، وهو الفريضة التى تلتقى فيها الدنيا والآخرة كما تلتقى فيها ذكريات العقيدة البعيدة والقريبة ، أصحاب السلع والتجارة يجدون فى موسم الحج سوقا رائجة ، حيث تجبى إلى البلد الحرام ثمرات كل شىء .

والحج بعد ذلك كله مؤتمر جامع للمسلمين قاطبة ، مؤتمر يجدون فيه أصلهم العريق الضارب فى أعماق الزمن منذ أبيهم إبراهيم الخليل ، ويجدون محورهم الذى يشدهم جميعا إليه : هذه القبلة التى يتوجهون إليها جميعا ، ويلتقون عليها ، ويجدون رايتهم التى يفيئون إليها : راية العقيدة الواحدة التى تتوارى فى ظلها فوارق الأجناس والألوان والأوطان ، ويجدون قوتهم التى قد ينسونها حينا : قوة التجمع والتوحد والترابط الذى يضم الملايين التى لا يقف لها أحد لو فاءت إلى رايتها الواحدة التى لا تتعدد . راية العقيدة والتوحيد ، وهذا من منافع الحج كل جيل بحسب ظروفه وحاجاته وتجاربه ومقتضياته .

ويمضى السياق يشير إلى بعض مناسك الحج وشعائره وأهدافها ، والقرآن يقدم ذكر اسم الله المصاحب لنحر الذبائح ؛لأن الجو جو عبادة ولأن المقصود من النحر هو التقرب إلى الله ، ومن ثم فإن أظهر ما يبرز فى عملية النحر هو ذكر اسم الله على الذبيحة ، وكأنها هو الهدف المقصود من النحر لا النحر ذاته ، وبهيمة الأنعام هى الإبل والبقر والغنم والمعز ، وهى صدقة وقربى لله بإطعام الفقراء، وبالنحر ينتهى الإحرام فيحل للحاج حلق شعره أو تقصيره، ونتف شعر الإبط، وقص الأظافر والاستحمام مما كان ممنوعا عليه فى فترة الإحرام ، فيزيلون الشعث والوسخ الذى لازمهم طيلة مدة الإحرام ، وليوفوا نذورهم التى نذروها من الذبائح غير الهدى الذى هو من أركان الحج ، وليطوفوا طواف الإفاضة بعد الوقوف بعرفات ، وبه تنتهى شعائر الحج ، وهو غير طواف الوداع .

هذا وتعظيم حرمات الله يتبعه التحرج من المساس بها وذلك خير عند الله ، خير فى عالم الضمير والمشاعر ، وخير فى عالم الحياة والواقع ، فالضمير الذى يتحرج هو الضمير الذى يتطهر والحياة التى ترعى فيها حرمات الله هى الحياة التى يأمن فيها البشر من البغى والاعتداء ، ويجدون فيها مثابة أمن وواحة سلام ومنطقة اطمئنان .

ولما كان المشركون يحرمون بعض الأنعام ـ كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامى ـ فيجعلون لها حرمة ، وهى ليست من حرمات الله بينما هم يعتدون على حرمات الله ـ فإن النص يتحدث عن حل الأنعام إلا ما حرم الله منها ـ كالميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، وذلك كى لا تكون هنالك حرمات إلا لله ، وألا يشرع أحد إلا بإذن الله ، ولا يحكم إلا بشريعة الله .

وبمناسبة حل الأنعام يأمر باجتناب الرجس من الأوثان ، وقد كان المشركون يذبحون عليها وهى رجس والرجس دنس النفس ، والشرك بالله دنس يصيب الضمير ويلوث القلوب ؛ ولأن الشرك افتراء على الله وزور ، فإنه يحذر من قول الزور كافة ، ويغلظ النص من جريمة قول الزور إذ يقرنها إلى الشرك ، وهكذا روى الإمام أحمد بإسناده عن فاتك الأسدى قال : صلى رسول الله ﷺ الصبح ، فلما انصرف قام قائما فقال :«عدلت شهادة الزور الإشراك بالله عز وجل» ثم تلا هذه الآية .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ المسلم عليه أن يسعى إلى تطهير الدنيا وإقامتها على توحيد الله .

٢ ـ لو فاءت الأمة المسلمة إلى راية العقيدة لا يقف لها أحد .

٣ ـ قول الزور جريمة كبيرة فهى مقرونة بالشرك بالله .

حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ
ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ
لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ
ٱلْعَتِيقِ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ
ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ
فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ
قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا
رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ
ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ
جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا
لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا
وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟
ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ إِنَّ ٱللَّهَ
يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ
٣٣٦

معانى الكلمات :

خر : سقط .

تهوى به الريح : تلقيه .

سحيق : بعيد مهلك .

شعائر الله : مطلوباته .

منسكا : عبادة .

المخبتين : المتواضعين لله .

وجلت : خافت .

القانع والمعتر : العفيف عن سؤال الناس والمتعرض له .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن تعظيم شعائر الله من تقوى القلوب .

٢ ـ أن نعلم أن فى إراقة الدماء نفعًا للفقير والحصول على مرتبة التقوى .

٣ ـ أن نعلم أن العبرة ليست بتقديم اللحم وإراقة الدماء بقدر ما تكون بالإخلاص لله وتقواه فى جميع الأمور .

المحتوى التربوى :

يعلن السياق أن الله يريد من الناس أن يميلوا عن الشرك كله ، وأن يجتنبوا الزور كله ، وأن يستقيموا على التوحيد الصادق الخالص ، ثم يرسم النص مشهداً عنيفا يصور حال من تزل قدماه عن أفق التوحيد فيهوى إلى درك الشرك ، فإذا هو ضائع ذاهب بدداً كأن لم يكن من قبل أبداً ، إنه مشهد الهوى من شاهق فكأنما خر من السماء ، وفى مثل لمح البصر يتمزق فتخطفه الطير أو تقذف به الريح فى هوة ليس لها قرار .

ثم يعود السياق من تعظيم حرمات الله باتقائها والتحرج من المساس بها ، إلى تعظيم شعائر الله وهى ذبائح الحج باستسمانها وغلاء أثمانها ، ويربط بين الهدى الذى ينحره الحاج وتقوى القلوب ، إذ إن التقوى هى الغاية من مناسك الحج وشعائره ، وهذه المناسك والشعائر إن هى إلا رموز تعبيرية عن التوجه إلى رب البيت وطاعته ، وقد تحمل فى طياتها ذكريات قديمة من عهد إبراهيم عليه السلام وما تلاه ، وهى ذكريات الطاعة والإنابة ، والتوجه إلى الله منذ نشأة هذه الأمة المسلمة ، فهى والدعاء والصلاة سواء .

وهذه الأنعام التى تتخذ هديا ينحر فى نهاية أيام الإحرام يجوز لصاحبها الانتفاع بها حتى تبلغ محلها وهو البيت العتيق ثم تنحر هناك ليأكل منها ويطعم البائس الفقير ، وهذه الذبائح يذكر القرآن الكريم أنها شعيرة معروفة فى شتى الأمم إنما يوجهها الإسلام وجهتها الصحيحة حين يتوجه بها إلى الله وحده دون سواه .

والإسلام يوحد المشاعر والاتجاهات ، ويتوجه بها كلها إلى الله ، ومن ثم يعنى بتوجيه الشعور والعمل ، والنشاط والعبادة والحركة والعادة إلى تلك الوجهة الواحدة ، وبذلك تصطبغ الحياة كلها بصبغة العقيدة ، وعلى هذا الأساس حرم من الذبائح ما أهل به لغير الله به ، وحتم ذكر الله عليها حتى ليجعل ذكر اسم الله هو الغرض البارز ، ويعقب بتقرير الوحدانية ، وبالأمر بالإسلام له وحده ، وبمجرد ذكر اسم الله يحرك الوجل فى ضمائر المؤمنين ومشاعرهم ، فلا اعتراض لهم على قضاء الله فيهم، فهم يعبدون الله حق عبادته، ولا يضنون على الله بما فى أيديهم .

ويستطرد السياق فى تقرير أن الشعائر تعبير عن هذه العقيدة ورمز لها ، وهو يبين شعائر الحج بنحر البدن فيقرر أن الله أراد الخير لهم فجعل فيها خيراً وهى حية تركب وتحلب وهى ذبيحة تهدى وتطعم ، فجزاء ما جعلها الله خيراً لهم أن يذكروا اسم الله عليها ويتوجهوا بها إليه وهى تهيأ للنحر بصف أقدامها ، والإبل تنحر قائمة على ثلاث معقولة الرجل الرابعة ، فإذا سقطت واطمأنت على الأرض بموتها أكل منها أصحابها استحبابا ، وأطعموا القانع الذى لا يسأل والفقير المعتر الذى يتعرض للسؤال ، فلهذا سخرها الله للناس ليشكروه على ما قدر لهم فيها من الخير حية وذبيحة .

وهم حين يؤمرون بنحرها باسم الله ، فإن اللحوم والدماء لا تصل إلى الله سبحانه ، إنما تصل إليه تقوى القلوب وتوجهاتها ، وقد هداكم الله إلى توحيده والاتجاه إليه وإدراك حقيقة الصلة بين الرب والعباد ، وحقيقة الصلة بين العمل والاتجاه ، والبشرى لمن يحسن التصور ، ويحسن الشعور ، ويحسن العبادة ، ويحسن الصلة بالله فى كل نشاط الحياة ، وهكذا لا يخطو المسلم فى حياته خطوة ، ولا يتحرك فى ليله أو نهاره حركة ، إلا وهو ينظر فيها إلى الله .

تلك الشعائر والعبادات لابد لها من حماية تدفع عنها الذين يصدون عن سبيل الله ، وتمنعهم من الاعتداء على حرية العقيدة وحرية العبادة ، وعلى قداسة العابد وحرمة الشعائر ، وتمكن المؤمنين العابدين العاملين من تحقيق منهاج الحياة القائم على العقيدة المتصل بالله ، الكفيل بتحقيق الخير للبشرية فى الدنيا والآخرة .

يقول صاحب الظلال : « إن قوى الشر والضلال تعمل فى هذه الأرض ، والمعركة مستمرة بين الخير والشر والهدى والضلال ، والصراع قائم بين قوى الإيمان وقوى الطغيان منذ أن خلق الله الإنسان ، والشر جامح والباطل مسلح ، وهو يبطش غير متحرج ، ويضرب غير متورع ؛ ويملك أن يفتن الناس عن الخيرات إن اهتدوا إليه ، وعن الحق إن تفتحت قلوبهم له ، فلابد للإيمان والخير والحق من قوة تحميها من البطش ، وتقيها من الفتنة وتحرسها من الأشواك والسموم .

ولم يشأ الله أن يترك الإيمان والخير والحق عزلا تكافح قوى الطغيان والشر والباطل ، اعتماداً على قوة قد تزلزل القلوب وتفتن النفوس وتزيغ الفطر ، وللصبر حد وللاحتمال أمد ، وللطاقة البشرية مدى تنتهى إليه ، والله أعلم بقلوب الناس ونفوسهم ، ومن ثم لم يشأ أن يترك المؤمنين للفتنة إلا ريثما يستعدون للمقاومة ، ويتهيؤون للدفاع ، ويتمكنون من وسائل الجهاد ، وعندئذ أذن لهم فى القتال لرد العدوان ، وقبل أن يأذن لهم بالانطلاق إلى المعركة آذنهم أنه هو سيتولى الدفاع عنهم فهم فى حمايته ، وأنه يكره أعداءهم لكفرهم وخيانتهم فهم مخذولون حتما» .

فالحق لابد له من قوة تحميه وتنتصر له ، وتخيف كل من تسول له نفسه أن يهجم عليه ، فإن كان الحق يملك قوة ذاتية فى نفسه ، فهذه القوة تحفظ عليه كيانه وتجدد له الحياة كلما تكاثر عليه الباطل وأراد أن يمحوه ، لكنه يطلب إلى هذا سربالا من قوة أهله حتى يزيح من طريقه الشرك وأهل الضلال ، ويظهر نوره على الدنيا من جديد .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ من الإيمان بالله عز وجل هو القاعدة الثابتة فى حياة الإنسان ، فإذا فقدها فقد المستقر الآمن الذى يثوب إليه ، وتقاذفته الأهواء فى أودية الضلال .

٢ ـ ينبغى على المسلم أن تصطبغ حياته بصبغة العقيدة فلا يخطو خطوة إلا وهو ينظر فيها إلى الله تعالى .

٣ ـ الله يتولى الدفاع عن عباده المؤمنين .

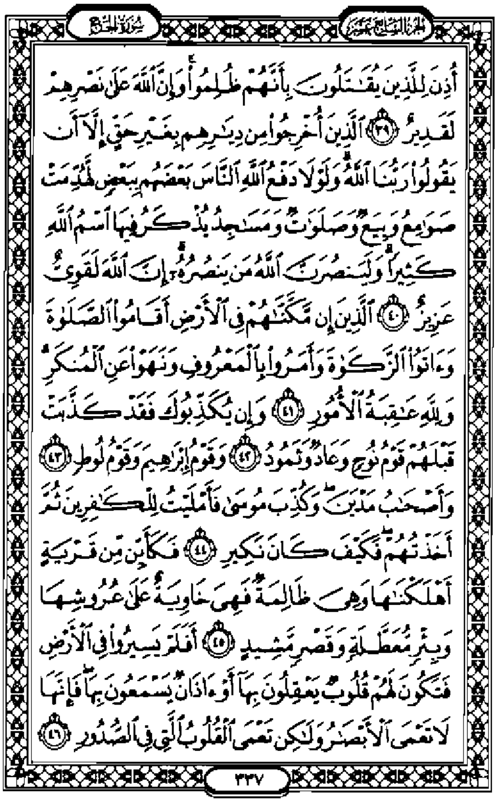
الجزء السابع عشر — سورة الحج

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ
لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن
يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ
صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ
كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ
عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ
وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ
قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾
وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ
أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ
أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا
وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا
لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

٣٣٧

معانى الكلمات :

أذن : سمح لهم بالقتال .

صوامع : المعابد الصغار للرهبان .

بيع : كنائس النصارى.

صلوات : كنائس اليهود .

أمليت : أخرت عقوبتهم .

خاوية على عروشها : ساقطة حيطانها على سقوفها المتهدمة .

معطلة : متروكة لا يستقى منها .

مشيد : مرفوع البنيان .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم حاجة العقيدة إلى الدفع عنها .

٢ ـ أن نعلم أن للنصر تكاليفه وأعباءه حين يتأذن الله به بعد استيفاء أسبابه وأداء ثمنه .

٣ ـ أن نقف على آثار يد القدرة وهى تتدخل فى سير الدعوة .

المحتوى التربوى :

يقرر السياق أحقية دفاعهم وسلامة موقفهم من الناحية الأدبية ، فهم مظلومون غير معتدين ولا متبطرين ، وأن لهم أن يطمئنوا إلى حماية الله لهم ونصره إياهم ، وأن لهم ما يبرز خوضهم للمعركة فهم منتدبون لمهمة إنسانية كبيرة لا يعود خيرها عليهم وحدهم ، إنما يعود على الجبهة المؤمنة كلها ، وفيها ضمان لحرية العقيدة وحرية العبادة ، وذلك فوق أنهم مظلومون أخرجوا من ديارهم بغير حق ، إلا أنهم قالوا الله ربنا ، وهى أصدق كلمة أن تقال ، وأحق كلمة بأن تقال ، ومن أجل هذه الكلمة وحدها كان إخراجهم ، فهو البغى المطلق الذى لا يستند إلى شبهة من ناحية المعتدين . .

ووراء هذا كله تلك القاعدة العامة ، حاجة العقيدة إلى الدفع عنها ، والصوامع أماكن العبادة المنعزلة للرهبان ، والبيع للنصارى والصلوات أماكن العبادة لليهود ، والمساجد أماكن العبادة للمسلمين ، وهى كلها معرضة للهدم ، ولا يشفع لها فى نظر الباطل أن اسم الله يذكر فيها ، ولا يحميها إلا دفع الله الناس بعضهم ببعض ، فلا يكفى الحق أنه الحق ليقف عدوان الباطل عليه ، بل لابد من قوة تحميه وتدفع عنه ، وهى قاعدة كلية لا تتبدل ما دام الإنسان هو الإنسان .

يقول صاحب الظلال : « لقد شاء الله تعالى أن يجعل دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم كى يتم نضجهم هم فى أثناء المعركة ، فالبنية الإنسانية لا تستيقظ كل الطاقات المذخورة فيها كما تستيقظ وهى تواجه الخطر، وهى تدفع وتدافع ، وهى تستجمع كل قوتها لتواجه القوة المهاجمة والأمة التى تقوم على دعوة الله فى حاجة إلى استيقاظ كل خلاياها ، واحتشاد كل قواها ، وتوفز كل استعدادها ، وتجمع كل طاقاتها كى يتم نموها ويكمل نضجها ، وتتهيأ بذلك لحمل الأمانة الضخمة والقيام عليها .

والنصر السريع الذى لا يكلف عناء ، والذى يتنزل هينا لينا على القاعدين المستريحين ، يعطل تلك الطاقات عن الظهور ؛ لأنه لا يحفزها ، ولا يدعوها ، وذلك فوق أن النصر السريع الهين اللين سهل فقدانه وضياعه ، أولا : لأنه رخيص الثمن لم تبذل فيه تضحيات عزيزة ، ، وثانيا : لأن الذين نالوه لم تدرب قواهم على الاحتفاظ به ، ولم تشحذ طاقاتهم وتحشد لكسبه ، فهى لا تتحفز ولا تحتشد للدفاع عنه » .

من أجل هذا كله ، ومن أجل غيره مما يعلمه الله ، جعل الله دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم ، ولم يجعله لقية تهبط عليهم من السماء بلا عناء ، والإسلام مع هذا يعد القتال غاية لذاته ، وقد يبطئ النصر ، فلتتضاعف التضحيات ، وتتضاعف الآلام ، مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم فى النهاية .

وللنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن الله به بعد استيفاء أسبابه وأداء ثمنه ، وتهيؤ الجو حوله لاستقباله واستبقائه، فوعد الله المؤكد الوثيق المتحقق الذى لا يتخلف هو أن ينصر من ينصره ، فمن هم هؤلاء الذين ينصرون الله ، فيستحقون نصر الله ، القوى العزيز الذى لا يهزم من يتولاه ؟

إنهم هؤلاء الذين إن مكنوا فى الأرض فحققنا لهم النصر ، وثبتنا لهم الأمر ، أقاموا الصلاة فعبدوا الله ووثقوا صلتهم به ، واتجهوا إليه طائعين خاضعين مستسلمين ، وأدوا حق المال ، وانتصروا على شح النفس وتطهروا من الحرص ، وغلبوا وسوسة الشيطان وسدوا خلة الجماعة ، وكفلوا الضعاف فيها والمحاويج ، وحققوا لها صفة الجسم الحى ، فدعوا إلى الخير والصلاح ودفعوا إليه الناس ، وقاوموا الشر والفساد ، وحققوا بهذا وذاك صفة الأمة المسلمة التى لا تبقى على منكر وهى قادرة على تغييره ، ولا تقعد عن معروف وهى قادرة على تحقيقه .

هؤلاء هم الذين ينصرون الله ، إذ ينصرون نهجه الذى أراد للناس فى الحياة معتزين بالله وحده دون سواه ، وهؤلاء هم الذين يعدهم الله بالنصر على وجه التحقيق واليقين ، فهو النصر القائم على أسبابه ومقتضياته ، المشروط بتكاليفه وأعبائه ، والأمر بعد ذلك لله ، يصرفه كيف يشاء .

وأنشأ السياق يطمئن الرسول ﷺ إلى تدخل يد القدرة الإلهية لنصره وخذلان أعدائه كما تدخلت من قبل لنصرة إخوانه الرسل عليهم السلام ، وأخذ المكذبين على مدار الأجيال ، وأخذ يوجه المشركين إلى تأمل مصارع الغابرين إن كانت لهم قلوب للتأمل والتدبر .

وهى سنة مطردة فى الرسالات كلها قبل الرسالة الأخيرة ، أن يجىء الرسل بالآيات فيكذب بها المكذبون ، فليس الرسول ﷺ بدعا من الرسل حين يكذبه المشركون ، والعاقبة معروفة ، والسنة مطردة ، فقد كذبت قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين ، ويفرد موسى بفقرة خاصة ، أولا :لأنه لم يكذب من قومه كما كذب هؤلاء من قومهم ، إنما كذب من فرعون وملئه، وثانيا : لوضوح الآيات التى جاء بها موسى وتعددها وضخامة الأحداث التى صاحبتها، وفى جميع تلك الحالات أملى الله للكافرين حينا من الزمان ثم أخذهم أخذاً شديداً ، وهو نكير مخيف، نكير الطوفان والخسف والتدمير والهلاك والزلازل والعواصف والترويع .

وبعد الاستعراض السريع لمصارع أولئك الأقوام يعمم فى عرض مصارع الغابرين ، وهى كثيرة تلك القرى المهلكة بظلمها ، وإلى جوار القرى الخاوية على عروشها الآبار معطلة المهجورة تذكر بالورد والورّاد، وإلى جوارها القصور المشيدة وهى خالية من السكان موحشة من الأحياء.

يعرض السياق هذه المشاهد ويسأل فى استنكار عن آثارها فى نفوس المشركين الكفار ، أفلم يسيروا وتكن لهم قلوب ؟ فإنهم يرون ولا يدركون ويسمعون ولا يعتبرون ، ولو كانت هذه القلوب مبصرة لجاشت بالذكرى وجاشت بالعبرة ، وجنحت إلى الإيمان خشية العاقبة الماثلة فى مصارع الغابرين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ قد يبطئ النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما فى طوقها من قوة ولا بد للحق من قوة تحميه .

٢ ـ الذين ينصرهم الله هم الذين ينصرون نهجه الذى أراده للناس فى الحياة .

٣ ـ مصارع الغابرين تتحدث بالعبر وتنطق بالعظات وهى أداة مؤثرة فى قلوب العاقلين .

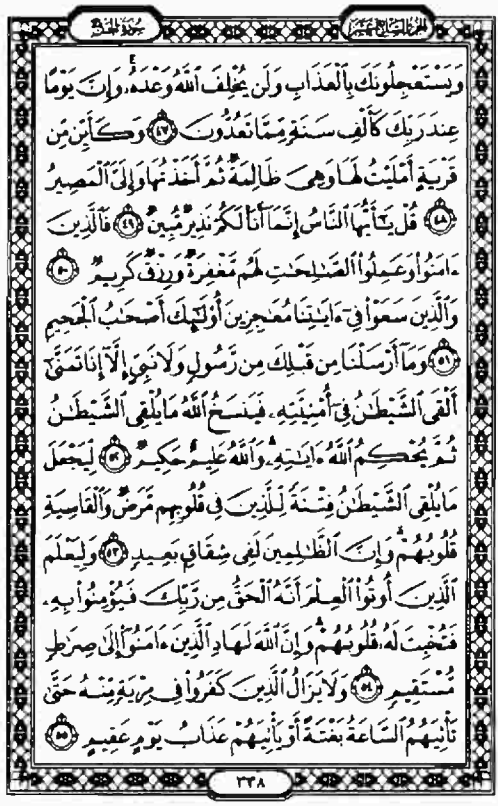
وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا
عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن
قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ
﴿٤٨﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾
وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ
﴿٥١﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ
أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ
ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ
مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ
قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ
ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ
فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ
تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾
٣٣٨

معانى الكلمات :

أمليت : أخرت عقوبتها .

أخذتها : عذبتها .

معاجزين : جادين فى إبطالها .

ينسخ : يزيل وساوسه .

يحكم : يثبت .

شقاق : بعد عن الحق .

تخبت : تطمئن .

بغتة : فجأة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن وعد الله لا يتخلف .

٢ ـ أن نعلم أن الله يحفظ دعوته من تكذيب المكذبين .

٣ ـ أن نقف على شأن الكافرين مع القرآن كله .

المحتوى التربوى :

بدلا من تأمل الكافرين فى مصارع الغابرين والجنوح إلى الإيمان والتقوى من العذاب ، راحوا يستعجلون بالعذاب الذى أخره الله عنهم إلى أجل معلوم ، ولقد أملى الله للكثير من تلك القرى الهالكة ، فلم يكن هذا الإملاء منجيًا لها من المصير المحتوم والسنة المطردة فى هلاك الظالمين ، فما بال هؤلاء المشركين يستعجلون بالعذاب ، ويهزؤون بالوعيد ، بسبب إملاء الله لهم حينا من الزمان إلى أجل معلوم ؟

وعند هذا الحد من عرض مصارع الغابرين ، وبيان سنة الله فى المكذبين ، يلتفت السياق بالخطاب إلى رسول الله ﷺ لينذر الناس ويبين لهم ما ينتظرهم من مصير ، ويمحض السياق

وظيفة الرسول ﷺ فى هذا المقام للإنذار لما يقتضيه التكذيب والاستهزاء واستعجال العذاب من إبراز الإنذار ، ثم يأخذ فى تفصيل المصير ، فأما الذين آمنوا وأتبعوا إيمانهم بثمرته التى تدل على تحققه ، فجزاؤهم مغفرة من ربهم لما سلف من ذنوبهم أو تقصيرهم ورزق كريم غير متهم ولا مهين ، وأما الذين بذلوا غاية جهدهم فى تعطيل آيات الله عن أن تبلغ القلوب ، وتتحقق فى حياة الناس ، فهؤلاء فقد جعلهم مالكين للجحيم ـ ويالسوئها من ملكية ـ فى مقابل الرزق الكريم .

والله الذى يحفظ دعوته من تكذيب المكذبين ، وتعطيل المعوقين ، ومعاجزة المعاجزين يحفظها كذلك من كيد الشيطان ، ومن محاولته أن ينفذ إليها من خلال أمنيات الرسل النابعة من طبيعتهم البشرية ،وهم معصومون من الشيطان ، ولكنهم بشر تمتد نفوسهم إلى أمانىّ تتعلق بسرعة نشر دعوتهم وانتصارهم وإزالة العقبات من طريقها ، فيحاول الشيطان أن ينفذ من خلال أمانيهم هذه فيحول الدعوة عن أصولها وعن موازينها ، فيبطل الله كيد الشيطان، ويصون دعوته ، ويبين للرسل أصولها وموازينها فيحكم آياته ، ويزيل كل شبهة فى قيم الدعوة ووسائلها .

والنص يقرر أن هذه القاعدة عامة فى الرسالات كلها مع الرسل كلهم ، فلابد أن يكون المقصود أمرًا عاما يستند إلى صفة فى الفطرة مشتركة بين الرسل جميعا ، بوصفهم من البشر ، مما لا يخالف العصمة المقررة ، فالرسل عندما يكلفون حمل الرسالة إلى الناس يكون أحب شىء إلى نفوسهم أن يجتمع الناس على الدعوة ، وأن يدركوا الخير الذى جاؤوهم به من عند الله فيتبعوه ، ولكن العقبات فى طريق الدعوات كثيرة ، والرسل بشر محدودو الأجل وهم يحسون هذا ويعلمونه ، فيتمنون لو يجذبون الناس إلى دعوتهم بأسرع طريق .. ذلك على حين يريد الله أن تمضى الدعوة على أصولها الكاملة ، وفق موازينها الدقيقة ، ثم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

ويجد الشيطان فى تلك الرغبات البشرية ، وفى بعض ما يترجم عنها من تصرفات أو كلمات ، فرصة للكيد للدعوة ، وتحويلها عن قواعدها ، وإلقاء الشبهات حولها فى النفوس ، ولكن الله يحول دون كيد الشيطان ، ويبين الحكم الفاصل فيما وقع من تصرفات أو كلمات ، ويكلف الرسل أن يكشفوا للناس عن الحكم الفاصل ، وبذلك يبطل الله كيد الشيطان ، ويحكم الله آياته فلا تبقى هنالك شبهة فى الوجه الصواب ، والله عليم حكيم ، فأما الذين فى قلوبهم مرض من نفاق أو انحراف ، والقاسية قلوبهم من الكفار المعاندين ، فيجدون فى مثل هذه الأحوال مادة للجدل واللجاج والشقاق ، وأما الذين أوتوا العلم والمعرفة فتطمئن قلوبهم إلى بيان الله وحكمه الفاصل ، وتخضع وتذل ، والله يرشدهم فى الدنيا إلى الحق واتباعه ، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه ، وفى الآخرة يهديهم إلى الصراط المستقيم الموصل إلى درجات الجنات ، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات .

يقول صاحب الظلال : « ولقد تدفع الحماسة والحرارة أصحاب الدعوات بعد الرسل والرغبة الملحة فى انتشار الدعوات وانتصارها ، تدفعهم إلى استمالة بعض الأشخاص أو بعض العناصر بالإغضاء فى أول الأمر عن شىء من مقتضيات الدعوة يحسبونه هم ليس أصيلا فيها ، ومجاراتهم فى بعض أمرهم كى لا ينفروا من الدعوة ويخاصموها .

ولقد تدفعهم كذلك إلى اتخاذ وسائل وأساليب لا تستقيم مع موازين الدعوة الدقيقة ، ولا مع منهج الدعوة المستقيم ، وذلك حرصا على سرعة انتصار الدعوة وانتشارها ، واجتهادا فى تحقيق مصلحة الدعوة ، ومصلحة الدعوة الحقيقية فى استقامتها على النهج دون انحراف قليل أو كثير ، أما النتائج فهى غيب لا يعلمه إلا الله ، فلا يجوز أن يحسب حملة الدعوة حساب هذه النتائج .

إن كلمة مصلحة الدعوة يجب أن ترتفع من قاموس أصحاب الدعوات ؛ لأنها مذلة ، ومدخل للشيطان يأتيهم منه ، حين يعز عليه أن يأتيهم من ناحية مصلحة الأشخاص ، ولقد تتحول مصلحة الدعوة إلى صنم يتعبده أصحاب الدعوات وينسون معه منهج الدعوة الأصيل ، إن على أصحاب الدعوة أن يستقيموا على نهجها ويتحروا هذا النهج دون التفات إلى ما يعقبه هذا التحرى من نتائج ، والله أعلم منهم بالمصلحة وهم ليسوا بها مكلفين » .

ويعقب السياق على تلك الآيات وما فيها من صيانة لدعوة الله من كيد الشيطان بأن الذين يكفرون بها مدحورون ينتظرهم العذاب المهين ، ذلك شأن الذين كفروا مع القرآن كله ، يذكره السياق بعد بيان موقفهم مما يلقى الشيطان فى أمنيات الأنبياء والرسل ؛ لما بين الشأنين من تشابه واتصال ، فهم لا يزالون فى ريبة من القرآن وشك ، من منشأ هذه الريبة أن قلوبهم لم تخالطها بشاشته فتدرك ما فيه من حقيقة وصدق ، ويظل هذا حالهم حتى تأتيهم الساعة فجأة أو يأتيهم يوم القيامة لا ليلة فيه ، فى هذا اليوم الملك لله وحده ، فلا ملك لأحد ، حتى الملك الظاهرى الذى كان يظنه الناس ملكا والحكم يومئذ لله وحده .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ لا تعجل فإن وعد الله لا يتخلف وهو حاصل فى وقته فاطمئن إليه .

٢ ـ من فضل الله ـ تعالى ـ ورحمته أنه يقبل توبة من تاب إليه ، ولا يعجل بالعقوبة للظالمين .

٣ ـ الشيطان يبذل جهده فى إغواء الناس،والعاقل من يتخذ الشيطان عدوا ولا يتبع خطواته.

الجزء السابع عشر — سورة الحج

ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾
وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟
لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ
ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ
ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ
مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ
لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى
ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ
﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن
دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ
مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾

٣٣٩

معانى الكلمات :

مهين : يذلهم فى النار .

حسنا : طيبا .

مدخلا : الجنة .

بغى عليه : ظلم بعد ذلك .

يولج : يدخل .

مخضرة : بالنبات .

لطيف : يدبر الأمور بدقة .

خبير : يعلم حقائق الأشياء .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الحكم لله وحده وهو يقضى بالجزاء المقسوم لكل واحد .

٢ ـ أن نتعرف على معنى الهجرة إلى الله تعالى .

٣ ـ أن نستيقن أن الله هو الحق المسيطر على نظام هذا الكون .

المحتوى التربوى :

بعد ما أعلن السياق أن الملك لله وحده وهى يقضى لكل فريق بجزائه المقسوم ، وأن المؤمنين من عباده ثوابهم جنات النعيم ، وأن الكافرين المكذبين بآيات الله لهم عذاب شديد مهين جزاء الكيد لدين الله ، وجزاء التكذيب بآياته البينات ، وجزاء الاستكبار عن الطاعة لله والتسليم ـ يبدأ بالحديث عن المهاجرين ، بعد ما سبق الإذن لهم بالقتال ، دفاعا عن عقيدتهم وعن عبادتهم ، ودفعا للظلم عن أنفسهم ، وقد أخرجوا من ديارهم بغير حق ، ولم تكن جريرتهم إلا أن يقولوا : ربنا الله ، ويبين ما أعده لهم من عوض عما تركوا من ديار وأموال .

يقول صاحب الظلال : « والهجرة فى سبيل الله تجرد من كل ما تهفو له النفس ، ومن كل ما تعتز به وتحرص عليه: الأهل والديار والوطن والذكريات والمال وسائر أعراض الحياة ، وإيثار العقيدة على هذا كله ابتغاء رضوان الله ، وتطلعا إلى ما عنده وهو خير مما فى الأرض جميعا ، والهجرة كانت قبل الفتح وقيام الدولة الإسلامية ، أما بعد الفتح فلم تعد هجرة ولكن جهاد وعمل كما قال رسول الله ﷺ ، فمن جاهد فى سبيل الله وعمل كان له حكم الهجرة وكان له ثوابها ».

فمن خرج مهاجراً فى سبيل الله ابتغاء مرضاته ، وطلب لما عنده وترك الأوطان والأهلين والخلاّن ، وفارق بلاده فى الله ورسوله ونصرة لدين الله ، ثم قُتل فى جهاده أو مات من غير قتال على فراشه ، فقد حصل على الأجر الجزيل والثناء الجميل ، فليجرين الله عليه من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم ، والله خير الرازقين ، وقد تعهد لهم بأن يدخلهم مدخلا يرضونه ، وإنه لمظهر لتكريم الله لهم بأن يتوفى ما يرضونه فيحققه لهم وهم عباده ، عليهم بما وقع عليهم من ظلم وأذى ، وبما يرضى نفوسهم ويعوضها ، وهو عليم يمهل ثم يوفى الظالم والمظلوم الجزاء الأوفى.

وأما الذين يقع عليهم العدوان من البشر فقد لا يحلمون ولا يصبرون، فيردون العدوان ، ويعاقبون بمثل ما وقع عليهم من الأذى ، فإن لم يكف المعتدون وعادوا البغى على المظلومين تكفل الله عندئذ بنصر المظلومين على المعتدين ، ويعقب على رد الاعتداء بمثله بأن الله هو الذى يملك العفو والمغفرة، أما البشر فقد لا يعفون ولا يغفرون،وقد يؤثرون القصاص ورد العدوان، وهذا لهم بحكم بشريتهم ولهم النصر من عند الله .

وينتقل السياق إلى ظاهرة طبيعية تشهد بقدرته على تحقيق وعده ، فالليل يدخل فى النهار عند المغيب ، والنهار يدخل فى الليل عند الشروق ، والليل يدخل فى النهار وهو يطول فى مدخل الشتاء ، والنهار يدخل فى الليل وهو يمتد عند مطلع الصيف ، ويرى البشر هذه الظاهرة فينسيهم طول رؤيتهم لها وطول ألفتها ماوراءها من دقة النواميس واطرادها ؛ فلا تحتل مرة ولا تتوقف مرة ، وهى تشهد بالقدرة الحكيمة التى تصرف هذا الكون وفق تلك النواميس .

يقول صاحب الظلال : « والسياق يوجه النظر إلى تلك الظاهرة الكونية المكرورة التى يمر عليها الناس غافلين ؛ ليفتح بصائرهم ومشاعرهم على يد القدرة، وهى تطوى النهار من جانب، وتسدل الليل من جانب ، وهى تطوى الليل من جانب، وتنشر النهار من جانب ، فى دقة عجيبة لا تختل ، وفى اطراد عجيب لا يتخلف ، وكذلك نصر الله لمن يقع عليه البغى وهو يدفع عن نفسه العدوان » .

وما يحدث فى الكون مرتبط بأن الله هو الحق ، فالحق هو المسيطر على نظام هذا الكون ، وكل ما دون الله باطل يخل ويتخلف ولا يطرد أو يستقيم ، والله هو الحق تعليل كاف وضمان كاف لانتصار الحق والعدل ، وهزيمة الباطل والبغى ، وهو كذلك ضمان لاطراد سنن الكون وثباتها وعدم تخلخلها أو تخلفها ، ومن هذه السنن انتصار الحق وهزيمة البغى ، والله أعلى من الطغاة وأكبر من الجبارين فلن يدع البغى يستعلى والظلم يستطيل .

ويستطرد السياق فى استعراض دلائل القدرة فى مشاهد الكون المعروضة للناس فى كل حين ، ونزول الماء من السماء ، ورؤية الأرض بعده مخضرة بين عشية وصباح ظاهرة واقعة مكرورة ، قد تذهب الألفة بجدتها فى النفوس ، فأما حين يتفتح الحس الشاعر ، فإن هذا المشهد فى الأرض يستجيش فى القلب شتى المشاعر والأحاسيس ، وإن القلب ليحس أحيانا أن هذا النبت الصغير الطالع من سواد الطين بخضرته وغضارته ، أطفال صغار تبسم فى غرارة لهذا الوجود الشائق البهيج ، وتكادس فرحتها بالنور تطير .

والذى يحس على هذا النمو يستطيع أن يدرك ما فى التعقيب من أن الله لطيف خبير ، من لطف وعمق ومشاكلة للون هذا الإحساس ، ولحقيقة ذلك المشهد وطبيعته ، فمن اللطف الإلهى ذلك الدبيب اللطيف ، دبيب النبتة الصغيرة من فوق الثرى ، وهى نحيلة ضئيلة ويد القدرة تمدها فى الهواء ، وتمدها بالشوق إلى الارتفاع على جاذبية الأرض وثقلة الطين .

وبالخبرة الإلهية يتم تدبير الأمر فى إنزال الماء بقدر فى الوقت المناسب وبالقدر المطلوب ويتم امتزاج الماء بالتربة ، وبخلايا النبات المتطلعة إلى الانطلاق والنور ، والماء وينزل من سماء الأرض إلى أرضه فينشئ فيها الحياة ، ويوفر فيها الغذاء والثراء ، والله المالك لما فى السماء والأرض ، غنى عما فى السماء والأرض ، وهو يرزق الأحياء بالماء والنبات ، وهو الغنى عنهم وعما يرزقون .

فالله سبحانه هو الغنى ما به من حاجة إلى من فى السماء والأرض ، أو ما فى السماء والأرض فهو الغنى عن الجميع ، وهو المحمود على آلائه ، المشكور على نعمائه المستحق للحمد من الجميع .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ وعد الله بالنصر لمن يعاقب بمثل ما عوقب به ثم يقع عليه البغى .

٢ ـ القرآن يوجه النظر إلى الكون وما فيه ليفتح بصائرهم ومشاعرهم على يد القدرة الإلهية .

٣ ـ الله ـ سبحانه ـ ما به من حاجة إلى من فى السماء والأرض ، فهو الغنى ونحن فقراء إليه .

معانى الكلمات :

الفلك : السفن .

يمسك السماء : يحفظها .

كفور : منكر للنعمة .

منسكا : شريعة .

ناسكوه : عاملون به .

الأمر : الدين .

سلطانا : برهانا .

يسطون : يبطشون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على مظاهر قدرة الله تعالى فى إمساك السماء أن تقع على الأرض وفى الإحياء والإماتة والبعث .

٢ ـ أن نعلم أن الله يعلم كل خفى وجلى وصغير وكبير فى السموات والأرض .

٣ ـ أن نقف على ما فى منهج المشركين من عوج وضعف ، وجهل بعض .

المحتوى التربوى :

يستطرد السياق مرة أخرى إلى استعراض دلائل القدرة المعروضة للناس فى كل حين ، وفى هذه الأرض كم من قوة ، وكم من ثروة سخرها الله لهذا الإنسان وهو غافل عن يد الله ونعمته التى يتقلب فيها بالليل والنهار ؛ لقد سخر الله ما فى الأرض لهذا الإنسان ، فجعل نواميسها موافقة لفطرته وطاقاته ، ولو اختلفت فطرة الإنسان وتركيبه عن نواميس هذه الأرض ما استطاع الحياة عليها ، فضلا على الانتفاع بها وبما فيها لو اختلف تركيبه الجسدى عن الدرجة التى يحتمل فيها جو هذه الأرض واستنشاق هوائها ، والتغذى بطعامها والارتواء بمائها لما عاش لحظة ، ولو خلا وجه هذه الأرض من الهواء ، أو كان هذا الهواء أكثف مما هو أو أخف لاختنق

هذا الإنسان أو لعجز عن استنشاق الهواء مادة الحياة فتوافق نواميس هذه الأرض وفطرة هذا الإنسان هو الذى سخر الأرض وما فيها لهذا الإنسان ، وهو من أمر الله .

ولقد سخر له الله ما فى الأرض مما وهبه من طاقات وإدراكات صالحة لاستغلال ثروات هذه الأرض وما أودعه الله إياها من ثروات وطاقات ظاهرة وكامنة ، يكشف منها الإنسان واحدة بعد واحدة ، وكلما احتاج إلى ثروة جديدة فض كنوزاً جديدة ، وكلما خشى أن ينفد رصيده من تلك الكنوز تكشف له منها رصيد جديد .

وهو الذى خلق النواميس التى تسمح بجريان الفلك فى البحر ، وعلم الإنسان كيف يهتدى إلى هذه النواميس ، فيسخرها لمصلحته وينتفع بها هذا الانتفاع ، ولو اختلفت طبيعة البحر أو طبيعة الفلك ، أو لو اختلفت مدارك هذا الإنسان ، ما كان شىء من هذا الكون كان .

وهو الذى خلق الكون وفق هذا النظام الذى اختاره له ، وحكم فيه تلك النواميس التى تظل بها النجوم والكواكب مرفوعة متباعدة ، لا تسقط ولا يصدم بعضها بعضا ، وكل تفسير فلكى للنظام الكونى ما يزيد على أنه محاولة لتفسير الناموس المنظم للوضع القائم الذى أنشأة خالق هذا النظام ، وإن كان بعضهم ينشئ هذه الحقيقة الواضحة ، فيخيل إليه حين يفسر النظام الكونى بنفى يد القدرة عن هذا الكون ويستبعد آثارها ، وهذا وهم عجيب وانحراف فى التفكير غريب،فإن الاهتداء إلى تفسير القانون لا ينفى وجود واضع القانون وأثره فى إعمال هذا القانون، والله سبحانه يمسك بالسماء حتى لا تقع على الأرض بفعل ذلك الناموس الذى يعمل فيها وهو من صنعه ، فلا تقع الأرض إلا بإذنه ، وذلك يوم يعطل الناموس الذى يُعمله لحكمة ويعطله كذلك لحكمة .

وينتهى السياق فى استعراض دلائل القدرة ودقة الناموس بالانتقال من الكون إلى النفس ، وعرض سنن الحياة والموت فى عالم الإنسان ، والحياة الأولى معجزة ، تتجدد فى كل حياة تنشأ آناء الليل وأطراف النهار ، وسرها اللطيف ما يزال غيبا يحار العقل البشرى فى تصور كنهه ، وفيه مجال فسيح للتأمل والتدبر ، والموت سر آخر يعجز العقل البشرى عن تصور كنهه ، وهو يتم فى لحظة خاطفة ، والمسافة بين طبيعة الموت وطبيعة الحياة مسافة عريضة ضخمة وفيه مجال فسيح للتأمل والتدبر ، والحياة بعد الموت ، وهى غيب من الغيب ، ولكن دليله حاضر من النشأة الأولى وفيه مجال كذلك للتأمل والتدبر ، ولكن هذا الإنسان لا يتأمل ولا يتدبر هذه الدلائل والأسرار ، فهو يجحد بنعمة الله تعالى .

والسياق يستعرض هذه الدلائل كلها ، ويوجه القلوب إليها فى معرض التوكيد لنصرة الله لمن يقع عليه البغى وهو يرد عن نفسه العدوان ، ثم يتوجه السياق بالخطاب إلى الرسول ﷺ

ليمضى فى طريقه غير ملتفت إلى المشركين وجدالهم له ، فلا يمكنهم من نزاعه فى منهجه الذى اختاره الله له ، وكلفه تبليغه وسلوكه ، فلكل أمة منهج وطريقة فى الحياة والتفكير والسلوك والاعتقاد هم سالكوه ، فلا داعى إذن لأن يشغل الرسول ﷺ بمجادلة المشركين ، وهم يصدون أنفسهم عن منسك الهوى ، ويمنعون فى منسك الضلال ، والله يأمره ألا يدع لهم فرصة لينازعوه فى أمره ويجادلوه فى منهجه ، كما يأمره أن يمضى على منهجه لا يتلفت ولا ينشغل بجدل المجادلين فهو منهج مستقيم .

وإن تعرض القوم لجداله فليختصر القول ، فلا ضرورة لإضاعة الوقت والجهد ، فإنما يجدى الجدل مع القلوب المستعدة للهدى التى تطلب المعرفة وتبحث حقيقة عن الدليل لا مع القلوب المصرة على الضلال ، فليكلهم إلى الله فهو الذى يحكم بين المناسك والمناهج وأتباعها الحكم الفاصل الأخير ، وهو الحكم الذى لا يجادل فيه أحد لأنه لا جدال فى ذلك اليوم ولا نزاع فى الحكم الأخير .

والله يحكم بعلم كامل لا يند عنه سبب ولا دليل ، وعلم الله الكامل الدقيق لا يخفى عليه شىء فى السماء ولا فى الأرض ، ولا يتأثر بالمؤثرات التى تنسى وتمحو ، فهو كتاب يضم علم كل شىء ويحتويه ، وهذا كله بالقياس إلى قدرة الله وعلمه شىء يسير .

ثم يكشف عما فى منهج المشركين من عوج وعما فيه من ضعف ، وعما فيه من جهل وظلم للحق ، ويقرر أنهم محرومون من عونه تعالى ونصرته ، وهم بذلك محرومون من النصير ، وما لوضع ولا لشرع من قوة إلا أن يستمد قوته من الله ، وهؤلاء إنما يعبدون آلهة من الأصنام والأوثان ، أو من الناس أو الشيطان ، وهذه كلها لم ينزل الله بها قوة من عنده ، فهى محرومة من القوة ، ويعبدون ما ليس لهم به علم، وهم لا يناهضون الحجة بالحجة، إنما يلجئون إلى العنف والبطش ، فيواجههم القرآن الكريم بالتهديد والوعيد بالنار فهى الرد المناسب والمنكر الذى تنطوون عليه وبئس المآل .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ على المسلم أن يتأمل ما حوله من دلائل القدرة الإلهية ويعرف نعمة الله عليه .

٢ ـ على المسلم أن يمضى على منهجه ولا ينشغل بجدل المجادلين حتى لا يضيع الوقت والجهد .

٣ ـ الكفار محرومون من عونه الله تعالى ونصرته ، والمؤمن نصيره الله .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ
تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ
وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ
ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ
مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟
رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾
وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ
عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ
ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ
وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ
وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ ۖ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾
سُورَةُ المُؤْمِنُونَ
٣٤١

معانى الكلمات :

ضرب : بُيِّن ووُضح .

يستنقذوه : يستردوه .

اجتباكم : اختاركم .

حرج : ضيق .

ملة : شريعة .

اعتصموا : استعينوا .

مولاكم : ناصركم ومتولى أموركم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نقف على الآلهة المدعاة من الأصنام والأوثان وغيرها .

٢ ـ أن نستشعر مهمتنا فى هذه الحياة .

٣ ـ أن نعلم العدة التى تجعلنا ننهض بمهمتنا فى الحياة .

المحتوى التربوى :

يعلن السياق فى الآفاق وعلى الناس جميعا إعلانا مدويا عاما،يعلن عن ضعف الآلهة المدعاة ؛ الآلهة كلها التى يتخذها الناس من دون الله ، ومن بينها تلك الآلهة التى يستنصر بها أولئك الظالمون ، ويركن إليها أولئك الغاشمون، يعلن عن هذا الضعف فى صورة مثَل معروض للأسماع والأبصار ، يصور فى مشهد شاخص متحرك تتملاه العيون والقلوب ، مشهد يرسم الضعف المزرى ويمثله أبرع تمثيل .

فيبدأ السياق بالنداء العام والنفير البعيد الصدى بالنداء على الناس جميعا ، فإذا تجمع الناس أعلنوا أنهم أمام مثل عام يضرب ، لا حالة خاصة ولا مناسبة حاضرة ، هذا المثل يضع قاعدة

ويقرر حقيقة ؛ أن كل من تدعون من دون الله آلهة مدعاة من أصنام وأوثان ، ومن أشخاص وقيم وأوضاع ، تستنصرون بها من دون الله ، وهؤلاء الذين يدعونهم آلهة لا يقدرون ـ ولو اجتمعوا وتساندوا ـ على خلق هذا الذباب الصغير الحقير !

ثم يخطو خطوة أوسع فى إبراز الضعف المزرى ، فهذه الآلهة لا تملك استنفاذ شىء من الذباب حين يسلبها إياه ، وقد اختير الذباب وهو ضعيف حقير ليقرر ما ألقاه المثل من ظلال الضعف التى تسيطر على الآلهة المدعاة .

وفى أنسب الظروف ، والمشاعر تفيض بالزراية والاحتقار لضعف الآلهة المدعاة يندد بسوء تقديرهم لله ، ويعرض قوة الله الحق الحقيق بأنه إله ، فما قدروا الله حق قدره ، وهم يستعينون بتلك الآلهة العاجزة الكليلة عن استنفاذ ما يسلبها إياه الذباب ويدعون الله القوى العزيز ، إنه تقرير وتقريع فى أشد المواقف مناسبة للخشوع والخضوع .

وهنا يذكر أن الله القوى العزيز يختار رسله من الملائكة والأنبياء ، ويختار رسله من البشر إلى الناس وذلك عن علم وخبرة وقدرة ، فعن صاحب القوة العزيز الجناب يصدر الاختيار للملائكة والرسل ، وهو يسمع ويرى ويعلم علما شاملا كاملا ، لا يند عنه حاضر ولا غائب ، وهو الحكم الأخير له السيطرة والتدبير .

ثم يتوجه الخطاب إلى الأمة المسلمة لتنهض بتكاليف دعوتها وتستقيم على نهجها العريق القويم ، ويجمع لها المنهاج الذى رسمه الله لهذه الأمة ، ويلخص تكاليفها التى ناطها بها ، ويقرر مكانها الذى قدره لها ، ويثبت جذورها فى الماضى والحاضر والمستقبل متى استقامت على النهج الذى أراده لها الله ، إنه يبدأ بأمر الذين آمنوا بالركوع والسجود وهما ركنا الصلاة البارزان .

ويثنى بالأمر العام بالعبادة ، وهى أشمل من الصلاة ، فكل نشاط الإنسان فى الحياة يمكن أن يتحول إلى عبادة متى توجه القلب إلى الله حتى لذائذه التى ينالها من طيبات الحياة بلفتة صغيرة تصبح عبادات تكتب له بها حسنات، ويختم بفعل الخير عامة ، فى التعامل مع الناس بعد التعامل مع الله بالصلاة والعبادة .

يأمر الأمة المسلمة بهذا رجاء أن تفلح ، فهذه أسباب الفلاح ، فالعبادة تصلها بالله فتقوم حياتها على قاعدة ثابتة وطريق واصل ، وفعل الخير يؤدى إلى استقامة الحياة الجماعية على قاعدة من الإيمان وأصالة الاتجاه ، فإذا استعدت الأمة المسلمة بهذه العدة من الصلة بالله واستقامة الحياة ، فاستقام ضميرها واستقامت حياتها نهضت بالتبعة الشاقة وهى الجهاد فى الله ، وهو تعبير شامل دقيق يصور تكليفًا ضخما ، يحتاج إلى تلك التعبئة وهذه الذخيرة وذلك الإعداد .

والجهاد فى سبيل الله يشمل جهاد الأعداء، وجهاد النفس، وجهاد الشر والفساد كلها سواء ، وقد اختار الله هذه الأمة فقد انتدبكم لهذه الأمانة الضخمة ، واختاركم لها من بين عباده ، وإن هذا الاختيار ليضخم التبعة ، ولا يجعل هنالك مجالا للتخلى عنها أو الفرار ، وإنه لإكرام من الله لهذه الأمة ينبغى أن يقابل منها بالشكر وحسن الأداء .

وهو تكليف محفوف برحمة الله ، وهذا الدين كله بتكاليفه وعباداته وشرائعه ملحوظ فيه فطرة الإنسان وطاقته ، ملحوظ فيه تلبية تلك الفطرة ، وإطلاق هذه الطاقة ، والاتجاه بها إلى البناء والاستعلاء ، وهو منهج عريق أصيل فى ماضى البشرية ، موصول الماضى بالحاضر ، وهو منبع التوحيد الذى اتصلت حلقاته منذ عهد إبراهيم عليه السلام فلم تنقطع من الأرض ، ولم تفصل بينها فجوات مضيعة لمعالم العقيدة .

وقد سمى الله هذه الأمة الموحدة بالمسلمين ، سماها كذلك من قبل وسماها كذلك فى القرآن ، والرسول ﷺ يشهد على هذه الأمة ، ويحدد نهجها واتجاهها ، ويقرر صوابها وخطأها ، وهى تشهد على الناس بمثل هذا ، فهى القوَّامة على البشرية بعد نبيها ، وهى الوصية على الناس بموازين شريعتها ، وتربيتها وفكرتها عن الكون والحياة ، وهذا الأمر يقتضى الاحتشاد له والاستعداد ، ومن ثم يأمرها القرآن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله ، وبهذه العدة تملك الأمة المسلمة أن تنهض بتكاليف الوصاية على البشرية التى اجتباها لها الله ، وتملك الانتفاع بالموارد والطاقات المادية التى تعارف الناس على أنها مصادر القوة فى الأرض ، والقرآن لا يغفل من شأنها بل يدعو إلى إعدادها ، ولكن مع حشد القوى والطاقات والزاد الذى لا ينفد ، والذى لا يملكه إلا المؤمنون بالله فيوجهون به الحياة إلى الخير والصلاح والاستعلاء .

يقول صاحب الظلال : « إن قيمة المنهج الإلهى للبشرية أنه يمضى بها قدمًا إلى الكمال المقدر لها فى هذه الأرض ، ولا يكتفى بأن يقودها للذائذ والمتاع وحدهما كما تقاد الأنعام ، وإن القيم الإنسانية العليا لتعتمد على كفاية الحياة المادية ، ولكنها لا تقف عند هذه المدارج الأولى ، وكذلك يريدها الإسلام فى كنف الوصاية الرشيدة المستقيمة على منهج الله» .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ على المسلم أن يخص الله بالعبادة وأن يجاهد فى سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة الدين .

٢ ـ التكاليف الشرعية التى فرضها الله على الناس لا مشقة فيها ولا تضيق ، فلا عذر لأحد فى التقصير فى أمر الدين.

٣ ـ أن نتوجه دائما إلى الله ونتوكل عليه ، ونستمد منه العون فهو نعم المعين ونعم النصير .